المبحث السادس

تلازم الحياة والموت

«سئلنى جَدّى يوماً: ماذا يعنى ربط الحياة بالموت فى القرآن الكريم؟، فقلت له أنهما متلازمان، قال وماذا تعنى بـ متلا زمان؟ فصمت، وظل السؤال معى حتى أصبحت أستاذاً للبيولوجيا، ففهمت الاعجاز العلمى فى عملية التلازم تلك».

أحمد مصطفى بكر

الامين العام لمركز دراسات الاعجاز العلمى فى النص القرآنى - أمريكا

الحياة والموت يمثلان بالنسبة للكائن الحى البداية والنهاية، ورغم اعتقاد الكثير من الناس بأنَّه لا إلتقاء بين الحياة والموت، رغم أنَّ الألتقاء موجود تماماً من الناحية العلمية.

إنَّ الحياة تعنى وجود شيئا نشيطْ وله القدرة على الاحتفاظ بهذا النشاط من خلال سلسلة من التفاعلات الحيوية، والتى تمثل الادارة الحافظة لنشاطه ذلك، ومن ثمّ فالحياة فى ذاتها تمثل كينونة قائمة مستقلة، كائن له صفاته وسماته وأحداثه المؤقتة ببداية ونهاية محددتين.

والموت أيضاً هو سلسلة من التحولات الحيوية التى تؤدى لهدم النشاط الحيوى، ولكى يتم هدم النشاط الحيوى لابد من وجود نشاط حيوى مضاد له، وله طاقة أعلى تمكنه من السيطرة الحيوية، ونعنى بذلك أنَّ الموت هو حدث غير مقصود لذاته، انما كانت الدراسات العلمية المنصبة موجهة لدراسة أسباب حدوث الانتهاء الوظيفى للخلايا، ونعنى بذلك « موت الخلايا» ومن ثم يمكننا القول بأنَّ الموت كائن أى موجود، ووجوده يتحقق بوجود أسباب حدوثه، وكذلك الحياة موجودة بأسباب تحقق وجودها.

وليس معنى قولنا «تحقق الحياة والموت بتواجد أسبابهم» اطلاق قيومية قوانين الوجود لأسباب الوجود، بل إنَّ اسباب الوجود فى يد الموجد لها يحذف فيها ويغير يبدل ويضيف كيفما يشاء.

واذا كانت دراسات فسيولوجيا الخلية أثبتت كينونة الحياة والموت (أى أنَّ كلاً منهما كائناً والكينونة (الوجود) يقتضى الخلق، ومن ثم فالموت والحياة مخلوقات)، فإنَّ القرآن الكريم قد سبق تلك الدراسات الوظيفية للخلية بأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وذلك فى قول الله تعالى فى الآية (٢) من سورة النمل:

﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

وعطف الموت والحياة يعنى وجود تلازم بينهما، فلكى يحدث الموت لابد من وجود الحياة، كما أنَّ الموت هو من الأدوات الرئيسية لاستمرار الحياة، فمن خلال

موت الخلايا وتحللها إلى العناصر المكونة لها، والتى تعود الى الأرض، لتمتص بواسطة النباتات من جديد، وامتصاصها ذلك ضرورى لتغذية هذه النباتات لتواصل حياتها ونموها ، ولولا ذلك ما استمرت حياتها.

كما أنَّ كثيراً من الكائنات الحيَّة تموت لتتغذى عليها كائنات أخرى والمعروفة بيولوجياً بالمترممات، ولولا وجود كائنات ميتة لانقرضت تلك الكائنات الحية المترممة، واختلت العلاقات الحيوية بين الكائنات الحية على سطح الأرض.

إنَّ وجود المترممات لايقتصر فقط على وجود كائنات حية كاملة، بل قد توجد خلايا مترممة داخل الانسجة الحيَّة تتغذى على المواد التالفة الميتة داخل الانسجة، ومن تلك الخلايا« خلايا الدم الا بتلاعية» وهى خلايا أميبية الشكل يمكنها ابتلاع المواد التالفة فى الأنسجة والخلايا، ولولا وجود هذه المواد التالفة الميتة لهلكت تلك الخلايا الابتلاعية، ومن ثم فوجود الموت متمثلاً فى الخلايا التالفة ضروريُ لحياة الخلايا الإبتلاعية.

إنَّ كثيراً ما تخرج الحياة من بين براثن الموت، ولانعنى بذلك خروج المواد او الكائنات الحية من مواد أو كائنات غير حية، ومن مظاهر ذلك خروج جنين الكائنات الحية « البيوضة» التى تضع بيضاً ، وهو كائن حى من قشرة البيضة الصلبة الميتة، وكخروج الجذير والريشة عند انبات البذرة من غلاف البذرة الميت الصلب، وعملية الخروج لاتعنى الخلق أى خلق كائن حى من ميت، بل تعنى قدرة الكائن الحى على اظهار وجوده رغم وجود محيط صلب ميت يمانع اظهار هذا الوجود.

وعملية النفاذ الحيوية للكائن الحى من خلال المواد الميتة تقتضى بذل جهد يتمثل فى افراز العديد من الانزيمات التى تذيب هذه الجدر الميتة لترى تلك الاجنة الحياة.

وكما أن الكائن الحى ينفذ من خلال الكائنات (الموجودات) الميتة، فان المواد الميتة تخرج من خلال الكائنات الحية، ومن مظاهر ذلك عملية التنح بالنبات، والتى تؤدى الى خروج قطرات الماء من ثغور الورقة، وكخروج باقى نواتج التمثيل الغذائى من الكائن الحى فى صورة فضلات، ويمكننا القول بأنَّ عملية الخروج للحياة من الموت والموت من الحياة تتعدى العمليات السابقة إلى معنى أكبر يعبر عن دورة الحياة

فجزيئات الماء غير الحيَّة هي اساس تكوين وعمل الجزيئات والمواد الحيَّة، ومن خلال نشاط الجزيئات والمواد الحيَّة تخرج قطرات الماء غير الحية، وأدق لفظ لوصف تلك الدورة الحياتية هو لفظ الخروج والذى يعنى أنَّ الخارج يتوقف تكوينه على مادة الخروج، ولكنها لاتمثله كلياً بل هى أساس خروجه فقط، وذلك بخلاف الخلق والذى يعنى ايجاداً من عدم، وليس من مادة خروج، وذلك ما نجده فى قول الله تعالى فى الآية (١٩) من سورة الروم.

﴿يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ﴾.

وينبغى الاشارة إلى ضرورة التفريق بين ثلاثة أشياء عند تعرضنا لموضوع الحياة، بين (ماهية الحياة) والتى تعنى الحياة كتكوين، وبين (أسباب الحياة) والتى تعنى العمليات المؤدية للتكوين ، وبين (سر الحياة) والذى يعنى الشىء المانح للتكوين أسباب الحياة، ونعنى بذلك الروح، واذا كنا قد استطعنا معرفة التكوين الحياتى وأسباب التكوين، فان قدراتنا تقف عاجزة عن فهم ماهية سر الحياة «الروح»، والتى تمنح بوجودها الشىء صفة الحياة، بل إننا لانستطيع فهم كيفية وجود الحياة بوجود الروح، وانتهائها بخروجها، ولا أدلَّ على ذلك من عجزنا عن فهم كيفية تحول الجماد متمثلاً فى عصا موسى إلى شىءً حى متمثلاً فى حية تسعى ، وقد أجمل القرآن ذلك فى قول الله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة الاسراء:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾.